الأهرام

المصدر: الاتحاد

التاريخ : ٢٣ فبراير ٢٠٠٥

الأيادي الآثمة

د. علي الشعيبي

كاتب ومفكر إعلامي

من قتل الحريري هو ذاته يتاجر بلبنان في المحافلِ الدولية ليبيعه شبراً شبراً ويعيده مستعمرة صغيرة تقتات على فتات موائد الدول الكبرى.

سيبقى السؤال حائراً يدور في أدمغة أكثر من 250 مليون رأس عربية. الأرض العربية من الماء إلى الماء ستطرح السؤال الحائر الآن، وبعد عقد أو بعد قرن ليبقى السؤال دون الجواب إدانة للواقع العربي المأزوم تاريخياً وسياسياً وأخلاقياً في عدم قدرته على الإفصاح عن اسم القاتل وهويته وانتمائه.

من قتل الحريري وفي هذا التوقيت بالذات؟ ولمصلحة من اغتيل؟ من فخخ السيارة أو الشارع أو المدينة أو الفكرة ليصنع طعماً أو يحفر حفرة لينزلق فيها لبنان بكل طوائفه ويحترق فيها أرزه وناسه وقدرته على ممارسة الحياة؟ من صنع الطعم ليجر سوريا إلى الأتون ويجعلها حطباً جديداً لتستعر النيران ويرتفع اللهيب؟

من اغتال الحريري ليكون اغتياله بياناً بإعلان الحرب على سوريا والمنطقة برمتها، وفي البيان فقرات قراءتها لا تقبل التأويل تدفع باتجاه فتح كل الأضواء الخضراء الكاشفة للدولة العبرية التي يتوافد عليها الأقزام للعق الأحذية وشراء الأراضي! أريد لهذه الدولة أن تكون محط الرعاية والدولة النووية الوحيدة القادرة على التمدد في المنطقة دون خوف أو محاسبة، وفي البيان إشارات لا تخطئها العين تقول إن كل الدول العربية القريبة من خطوط المواجهة (الوهمية طبعا) والبعيدة في مجاهل الصحراء الأفريقية أو القابعة في تخوم الربع الخالي أو الغارقة في لجة المحيط الباسيفيكي كلها تقريباً أهداف محتملة إما للقصف بالقنابل الذكية أو بغرس أعلام الديمقراطية في قلب الوديان وعمق الخلجان وأدمغة الإنسان.

من قتل الحريري يده ملوثة بالجريمة التي لا يمكن أن تغتفر. جريمة إن كانت عربية الوجه واليد واللسان فهي كارثة أصابت الأمة في مقتل، وأصبحت هذه الأمة في عصر الهوان والذل كالقطة التي بدأت تأكل أبناءها بحثاً عن الحياة أو الخلاص الفردي، وإن كانت مؤامرة قتل الحريري من تدبير أجنبي وبأيد غادرة استطاعت أن تطال رجلا بقامة الحريري، فإن الأمرَ يستحق وقفة لمحاسبة الذات ومحاسبة النظام العربي برمته، ووضعه أمام مسؤوليات جسام تتعلق بمستقبل هذا النظام ومستقبل الإنسان في هذه البقعة من الأرض، فكيف يمكن تخيل سفن الفينيقيين عائدة من موانئ الدنيا بأشرعة ممزقة وروح مكسورة وتاريخ يكتب بحبر الذلة والمسكنة؟ وكيف تعود مراكبهم لتحمل نعوشاً قدت من شجر الأرز لتبحث لهذه النعوش عن أرض تدفن فيها غير أرض لبنان الحب والوجد والشوق؟.

من قتل الحريري هو ذاته الذي أراد قتل اتفاق الطائف ليبيع الرصاص والموت وخناجر الغدر لأطفال لبنان، هو ذاته الذي أراد إحراق لبنان ليحرق الحرف والأغنية الجميلة ليخنق فيروز ومرسيل خليفة وجوليا بطرس، ويقتل في ضمائرنا صوت وديع الصافي هو ذاته الذي أراد أن يشعل حريقاً في الوطن ويهدم الدور على ساكنيها، ويحول شوارع بيروت التي بناها الحريري إلى متاريس للموت وخنادق للقناصة.

من قتل الحريري هو ذاته يتاجر بلبنان في المحافل الدولية ليبيعه شبراً شبراً ويعيده مستعمرة صغيرة تقتات على فتات موائد الدول الكبرى.

من قتل الحريري هو ذلك المهووس بالتطرف المسكون بنزعة القتل والتدمير دون هوادة، متلبس بفكرة تحقيق الوهم على حساب حياة الإنسان، ولم يكن الحريري يوماً خارجاً عن الملة أو جاحداً لعطايا الرب أو شحيحاً في العطاء، فكم بيتاً لشهيد كفله الحريري؟ وكم طالب علم كانت يد الحريري الإنسان أقرب إليه من يد الدولة اللبنانية؟ وكم أخاً لبنانياً متخاصماً مد له الحريري يد المصالحة وأعاده إلى جادة الصواب؟.

إن كان المتطرفون قد استهدفوا الحريري فإنهم قد انغمسوا في وحل فكرة خاسرة، وإن كانت سوريا كما يشاع ويروج له بإصرار

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

قد تخلصت من الحريري لحسابات باتت غير مقنعة فإن سوريا قد أكلت الطعم الأميركي بسهولة ويسر وهذا ما لا يقبله منطق الأشياء. فالسياسة السورية معروفة بالحذر الشديد وخاصة عند التعاطي مع الملف اللبناني وبالتالي مع الملف الإسرائيلي ومسألة الجولان ومعاهدة السلام مع العدو. ولا يمكن لعاقل أن يتصور أن سوريا قد بلعت هذا الطعم بهذه السهولة وفتحت أبواب جهنم الأميركية على مصراعيها لتكون دمشق الأقرب إلى السقوط من طهران بعد دمار بغداد.

رغم صلابة موقف النفي السوري إلا أن حديث اللغو في هذا الموضوع كثير وكبير، ويحتاج من القيادة السياسية في سوريا تقديم ما يؤكد سلامة الموقف السوري حتى لا يكون لأية لجنة دولية تحقق في هذا الأمر أي منفذ لتوجيه أصابع الاتهام لها ومن ثم لا تمتلك القيادة السورية فرصة ربما تكون يتيمة للتراجع.

ربما تكون سوريا الهدف المرتقب لتصفية الحسابات وتمتلك سوريا أوراقاً مختلفة وفاعلة لتحريك الموقف لصالحها، وهذا لن يتأتى إلا بتحرك دبلوماسي سوري يضع مصالح سوريا العليا ومصالح الأمة العربية في كفة ميزان الترجيح، وأكثر ما يمكن خشيته هو تحالف دولي يجمع أميركا بالأوروبيين يتم في دهاليزه وخلف أبوابه المغلقة عقد صفقات لتقاسم أشلاء هذه الأمة المريضة، والقابعة فوق سرير غرفة الإنعاش في حالة موت سريري. موت، ولا موت حمل ولا مخاض من اللحظة التي أسقط فيها الإنسان من حسابات المستقبل، موت في لحظة انتهاك لقيم إقامة دولة القانون ودولة المؤسسات، وسقوط شرعية بقاء الفرد حرا كريماً في دول تنتخب بنسب تتجاوز 100٪ ودول تنتحب فيها النسوة الثكالى والأرامل دموعاً ممزوجة بالدم.

من قتل الحريري أطفأ بصيص الأمل، وأغلق الأبواب على المستقبل ليكون الدم حبراً نكتب به على صفحات التاريخ لأمة أدمنت القهر، وعشقت لون الدم، أمة تتلذذ بنبش القبور الجماعية، وتشارك بالنواح واللطم وتعذيب الذات.

صراخ، وعويل، ودم، وآهة، وزفرة، لا تقول إلا أن الذي قتل الحريري أدرك أن إكرام الميت دفنه، وإكرام أمة تموت فوق سرير الغيبوبة التاريخية لن يكون إلا بنزع خراطيم الأكسجين عنها، وتركها تتلوى فربما كان الموت أرحم وأشرف من البقاء في ذيل القائمة لأمة على وجهها هائمة تدعي عقوق الأبناء وهي ظالمة، القتلة على اختلاف مشاربهم، وتجذر أحقادهم إرهابيون من الطراز الأول، لا يهم لون جلدتهم وطول لحيتهم وقصر جلبابهم أو أناقة ربطات العنق الباريسية التي يتناثر عليها رذاذ كلماتهم الجوفاء، التي تدعي حب لبنان ووحدته، وتدعي الدفاع عن مقل أطفال لبنان بعد أن اغتيلت براءتهم وخنقت الكلمة في صدورهم.

القتلة المجرمون هالهم أن يتعانق في لبنان الصليب والهلال، وأن يحتضن الراهب إمام المسجد، وتختلط الدموع في مشهد الوداع، وأن يسمع صوت الآذان وقراءة القرآن مع قرع أجراس الكنائس. المجرمون وهم يعرفون أنفسهم قبل أن نتمكن من تسميتهم أرادوا أن يكون عاشوراء لبنان هذا العام موعداً مع الحزن على رحيل رفيق اللبناني السني، تبكيه أفئدة شيعة لبنان وعيون المسيحيين.

لقد رد لبنان الحب والوجد والأمل، لبنان البشر والشجر وخرير المياه في الجداول، رد عليهم لبنان الوطن في مسيرة المليون مشيع ليقول للعالم إن لبنان الذي نحب أكبر من أن يقع في مستنقع حرب أهلية عابثة، وأن لبنان لن يسمح للآخرين بتحويله إلى ساحة تدريب وتخريب وتصفية حسابات.

فلتبق الأرزة صامدة، وليرتسم للحب ألف معنى ومعنى على صخرة الروشة، وسيكون لبنان أكبر من الجرح والموت لعشاق الموت أصحاب الأيادي والنوايا الآثمة.

---

alshuaibiali@yahoo.com

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية